كلية أبناء الريف

بقلم A. C. DENT

" تقوم "إدارة الفلاح" بنقل أهم المشروعات التي أخذت بها الأمم الغربية لترقية مستوى معيشة الفلاح وثقافته الاجتماعية ، إلى اللغة العربية لتكون مادة ينتفع بها في الدراسات الاجتماعية الخاصة بأعمال الإدارة ومشروعاتها للفلاح . وهاهي ذي تقدم لقراء المجلة المشروع الذي نقله الى اللغة العربية الأستاذ علي فؤاد أحمد الأخصائي الزراعي الاجتماعي بها " .

في شهر أبريل سنة ١٩٤٥ تلقت لجنة التربية بمقاطعة كمبردج The education commiter of the Cambridge country council مذكرة في موضوع "مادة التربية الريفية والتسهيلات الاجتماعية بالريف " كتبها المستر هنري موريس — وهو شاب عين حديثا سكرتيرا لمجلس التربية . وكان من أثر هذه المذكرة نشوء الكليات الريفية بمقاطعة كمبردج — وهو مجهود فذ بدائي لمقاومة انحلال الحضارة الريفية في انجلترا ، ولإعيد الى المجتمع الريفي شعوره برسالته ووحدته وقوته .

أما موريس هذا فقد كان رجلا بعيد النظر نافذ البصيرة وقد تملكه — وكثيرا من أمثاله — الحيرة الشديدة من عواقب أقفار الريف الانجليزي من السكان ، الأمر الذي بدأ من بكر القرن التاسع عشر عندما أخذ الانقلاب الصناعي يمتص الرجال والنساء من القرى ويرمي بهم الى المدن والأوساط الصناعية ، واستمر الحال هكذا من ذلك الوقت وقد رابه ما رأى من أن دم الحياة والنشاط والابتكار كانت تنزف من جسم الريف الذي سرعان ما كان يفقد كل شعور بالاستقلال الحقيق وصار في كل أموره تابعا للمدينة ، وقد كان هذا في اعتقاده مصيبة وطنية فهو يرى كما يرى الكثيرون غيره من المفكرين أنه يجب لسلامة حضارة الدولة أن تقوم دائما مؤسسة على ثقافتين احداهما حضرية والأخرى ريفية ، وأن السماح لأحدهما بالذبول والاندثار هو نخر لأساس الحياة القومية .

ولكن كان من الواضح أن القضاء على الحضارة الريفية الانجليزية أصبح أمرا محتوما مالم يسعفه علاج حاسم — فقد مضى أكثر من مائة عام على جريان ذلك التيار العاتي الذي يجرف أفضل سكانه مقدرة ونشاطا فيجعلهم من القرى ومن الأعمال الريفية الى المصانع والمعامل والاشتغال بمؤسسات الأعمال بالمدن والأوساط الصناعية . ونتج عن ذلك أن الحاصلات الزراعية والتقدم الريفي لم يعد يقوى على مسايرة الزمن وأصبحت كل رفاهية

ونمو لخدمات الاجتماعية الحديثة مقصورة على أهل المدن — أما المجتمع القروى فانه بقى فى ظاهره على حاله — فلقد كان يسير بخطى سريعة إلى ما لا يزيد عن مجموعات من السكان جمعتهم التصادفة بلا رابطة ولا وحدة ولا مصالح مشتركة ، وشارفت روحهم الاجتماعية الموت ولكنها لم تمت وما زالت الفرصة سانحة لاحيائها ، وكما قال أحد الكتاب " لا تزال المجتمعات القروية إلى الأيام الأخيرة تحتفظ بانسانيتها الخاصة التى تبدو واضحة فى صناعاتها وفى فن التمثيل بها وفى موسيقاها وفى رقصها . وحيثما بذل مجهود بدت عودتها للحياة واتضح أن التقاليد الريفية لم يتزل بها القضاء الأخير ، وهى فى جوهرها تقاليد انجليزية ما يزال يرجى من ورائها الخير الكثير للانسانية فى العالم " .

ولكن هذه المحاولات الفردية لإنعاش التقاليد وجد أنها إنما تفيد فائدة جزئية كما كانت تبدو مصطنعة أكثر منها طبيعية ، فما كانت الثقافة التى يؤتى بها تكاد تؤثر فى كتلة سكان الريف ، وكانت ضئيلة الأثر أو عديمته فى حل مشكلة العمل الأساسية ، وقد نفذت بصيرة "موريس" إلى سبب ذلك ، فأبلغ المجمع البريطانى فى سنة ١٩٣٦ أن تلك الوسائل انما تلمس ناحية من الحياة الريفية دون مراعاة لباقى النواحى ، فقد أريد بها فى مجموعها بعث الماضى دون النظر إلى الظروف الحديثة وبخاصة التقدم الحائل فى الحياة الاجتماعية العامة .

القرية الانجليزية بوصفها وحدة اجتماعية هى أثر من آثار القرون الوسطى — عصر ما قبل الصناعة فى القرنين السابع والثامن عشر — يعيش أهلها فى عصر لا عهد له بالطرق المهدة كما يفهمها الجيل الحاضر ولا بوسائل النقل السريعة ، ولا يعنى أهلها إن كان تعدادهم مائتين أو ألف كما يعنى ذلك أهل الصناعة أو القائمين بالخدمة الاجتماعية .

فقال "موريس" للجنة سنة ١٩٢٥ فلنقترب من المشكلة لا لنعود بالريف الى ما كان عليه فى الماضى ، ولكن لنتقدم به فى بحر السنين المائة أو المائتين القادمتين ليعيش فى الحاضر بل وليسبقه الى المستقبل ، ثم قال : ان من الواضح أن التدبيرات الاقتصادية لخدمات الاجتماعية الحديثة والرفاهية فى المعيشة يتطلب وحدات اجتماعية أكبر من القرية بمفردها ، وان القرية المستقلة التى تستطيع أن تنعم بمفردها بالحياة السهلة الرغدة فكرة راحت ولا عودة لها ، فالقرية بمفردها لا تستطيع أن تمد أهلها بحياة كاملة من الناحية الثقافية أو الناحية الاجتماعية التى عقد النشء العزم على تحصيلها .

كيف الوسيلة إذن لتمكين أهل القرية من الوصول الى حياة اجتماعية كاملة مستقلة عن المدن ؟ يقول موريس فى ذلك إنه لابد من اختيار منطقة ريفية rural region بمثابة وحدة اجتماعية ثقافية cultural social unit ذلك هو النظام الوحيد الذى يحل مشكلة خضوع القرية التام أمام المدينة فلم يعد الاختيار بين القرية والمدينة ولكن بين المنطقة الريفية والمدينة وما لم نجعل المنطقة الريفية خصما بين القرية والمدينة فإن أمر القرية لابد وأن يصير الى العدم " .

وقد يكون هناك فى الريف الانجليزى مناطق ريفية تتكون من البندر الريفى The small country town وما يتبعه من القرى ، ولكن هناك مناطق تتكون وحدها من مجموعة من القرى المتقاربة حول قرية مركزية ، وهـــذه الأخيرة هى ما عناه موريس وقصد بابرازه الى عالم الحقيقة لتكون وحدة ثقافية واجتماعية ناجحة .

رأى أن مشكلة الريف لايستطاع حلها بتناولها مجزأة بل يجب معالجتها ككل ، ولم يكن يرتاب فى الشكل ولا فى الجهة التى يأتى منها العلاج — فكان يقول أن جماعاتنا سواء أكانت ريفية أم حضرية يجب أن يدور نظامها ويتأسس بنيانها حول معاهدها التهذيبية — فاذا أردنا أن نشيد حضارة ناهضة فى الريف فان أول عمل أساسى نقوم به هو أن نجعل للريف سياسة بلدية محلية للتعليم Localized & indigenous system of education وعلى هذا الأساس يبنى مشروعه للكليات الريفية .

وتقوم فكرته الأساسية على أنه يلزم أن يكون فى المناطق الجغرافية الطبيعية التى سبق الكلام عنها بلاد كبيرة بمثابة قواعد أو مراكز لهذه المناطق ، وأن تجرى وتنظم الشؤون التهذيبية والاجتماعية على أيدى جماعات متعاونة ، سواء أكانت هذه الجماعات حكومية التكوين أو قائمة على أساس التطوع ، جماعات مما سبق من قبل وجودها بالأوساط الريفية منعزلة بعضها عن بعض وبذلك لم يكن لها أثر عملى ، ومن رايه أن مجلس المقاطعة يكون له القوة بمقتضى القوانين القائمة على إدارة وتنظيم هذه الجماعات وربطها وتنسيقها مع بعضها .

ولم تكن الفكرة فى حد ذاتها بدعة ، فقد نشأت من قبل فى أمريكا — وجربت إلى حد ما ونشأت أفكار مماثلة ببلدان أخرى ولكن فضل موريس الأكبر يرجع إلى تحويله للفكرة إلى العرف الانجليزى الريفى ونقل الفكرة إلى حيز التنفيذ .

اقترح موريس أن يكون نواة المركز الجماعى Community centre هى المدرسة المتوسطة Post primary school للكبار (من سن ١١ — ١٤) ، لكن الكلية التى صورها تضم وتجمع فى دائرة بناء واحد جميع الخدمات التى يقرر عملها مجلس المقاطعة — ولتكن هناك فرص تعليمية للكبار كما تكون للصغار — كما يكون بها استعداد للتعليم الزراعى والمنزلى ولخدمات الطبية المدرسية والصحية العامة والمكتبات المدرسية والمكتبات العامة ، وأن تيسر وسائل الرياضة للكبار والصغار كما تعد الى جانب ذلك غرف يجتمع فيها مجالس المقاطعة Parish councils المضطلعة بالســـلطة الحكومية فى المنطقة — وغرف أخرى لهيئات المتطوعين بالمنطقة بمثابة مراكز لنشاطهم — كما يشمل البناء الى جانب ذلك مراكز لخير الأمومة والطفولة — ومدرسة حضانة Nursery school للأطفال بين الثانية والخامسة ومدرسة ابتدائية Primary school للأطفال ما بين الخامسة والحادية عشر مركزها القرية الرئيسية

ومدرسة متوسطة Post Primary يلحق بها الصبيان ما بين سنه الحادية عشر والخامسة عشر من جميع القرى التى تشتمل عليها المنطقة — ومراكز للأشغال اليدوية والعلوم المنزلية ينتفع منها الأطفال والمراهقون ومدرسة يتلقون فيها نوعا من التعليم الثانوى الريفى وأن تخصص ناحية من البناء للكبار يتلقون فيها تعليما خاصا بهم . ومثلها للألعاب وللنشاط الاجتماعى وعقد الجمعيات — كما يجب أن يتوفر بالمكان عيادات للخدمات الصحية المدرسية والعامة ومجال للألعاب وحوض للسباحة ومكتب لتخديم الصبيان والبنات فى الصناعات الريفية وأن يحاط البناء بمجموعة من البساتين والميادين الرياضية الواسعة ، وبالاختصار فإن كل التسهيلات اللازمة لرفاهية الحياة يجب أن تتوفر فى أحسن صورها rural education of a secondary type.

ولقد كتب المستر موريس فى مذكرته الأصلية أن حاجة الريف لا يمكن الوفاء بها بغير أن نعيد تنظيم المدارس الأولية ، فنمد القرى بتعليم ابتدائى وثانوى يناسب البنين والبنات حتى يستطيع هؤلاء الريفيون أن يحصلوا على فرصتهم فى التعليم كأندادهم من المدنيين ، وأن يوفر لهم التعليم العالى والتعليم الفنى Higharq technical education حتى يمكن لسكان الريف أن يضمنوا حياة اجتماعية ورياضية قائمة على أساس متين .

هنرى موريس فنان كبير عظيم الخيال لا يغيب عن باله أبدا أن يجعل من انجلترا جمالا فى كل نواحيها ، وأن يبرأ من أن يرى مبانى وضيعة مشوهة تدنس ريفها المحبوب ، فكان أساس تصوره لكلية الريف أن يكون بناؤها فى هندسته عملا فنيا رائعا ، وأن يكون أثاثها ومعداتها مما يناسب الذوق السليم ، وأن يختار موقعها وسط جمال الطبيعة ، يحيط بها الأراضى الواسعة ويتجلى فيها الجلال والبهجة ، وتستطيع أن تتصور ما بلغه من نجاح عندما تقرأ ما كتبته إحدى الأمريكيات عندما قامت بزيارة كليات الريف ومعاهد التربية فى أنحاء المعمورة " لا يزور انسان كليات الريف إلا وتأخذه بساطة الجمال وسمو نوع مواد التعليم الجارية وما يتجلى فى كل نواحى المشروع من دلائل الذكاء والحكمة " ولا ريب أن كل من رأى هذه الكليات سيؤيد رأى هذه الأمريكية .

وبعد أن أمعنت لجنة التربية بمقاطعة كمبردج النظر فى مقترحات المستر موريس أقرتها من حيث المبدأ ، وقد سنحت الفرصة لاختبارها منذ زمن قصير . ففى بلدة سوستن Souston البالغ تعدادها نحو ١٥٠٠ نسمة والتى تقع على مسافة سبعة أميال جنوبى مدينة جامعة كمبردج حدث ببناء مدرستها عطب خطير الإصلاح ، ودل الفحص على أن بناء جديدا يحتاج لتكاليف لا تزيد كثيرا على اللازمة لإصلاح القديم ، وكانت سوستن هذه إحدى القرى التى اختارها موريس لتكون مركزا لمنطقة ريفية ، فقررت لجنة التربية أن تخوض غمار المشروع ، وفى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٧ وافقت على مشروع لكلية ريفية تجريبية لمنطقة سوستن الريفية ، وكانت الكلية تخدم تسعة قرى أقصاها تبعد بأربعة أميال ، وقدرت

تكاليف البناء بمبلغ ١٦,٠٠٠ جنيه ، ميزانية ضخمة إذا قورنت بميزانية المدرسة السابقة التى كانت ٦,٠٠٠ جنيه ؛ ولذا فسرعان ما قفزت الإعانات المحلية والخارجية ، فها هوذا المستر هـ . ج . سبنسر H. G. Spencer وهو صاحب أكبر مصنع فى سوستن — مصنع للورق — يذل منحة سخية هى مقر فسيح مساحته ١٢ فدانا واكتتب هو وأعضاء أسرته بمبلغ خمسمائة جنيه لحجرة الخدمات الطبية وخمسمائة أخرى لإنشاء مركز للعلوم المنزلية Domestic science centro

وهاهو ذا مصرف كارنجى للمملكة المتحدة The Carnegie United Kingdom truat وهو يعطف دائما على التجارب التربوية يذل عطاء جميلا بمبلغ ٥٠٠٠ جنيه لتعين على نفقات البهو والمكتبة وغرف الكبار والتعليم الزراعى ومنزل رئيس المدرسة .

بينما قامت القرى بجمع مبلغ ٥٠٠ جنيه ، كما وعدت مطبعة جامعة كمبردج بتقديم الكتب للمكتبة .. وهكذا ، بجانب المساعدات الأخرى توفرت جميع المبالغ المطلوبة للعمل .

وسار المشروع فورا فى التنفيذ ، وفى أكتوبر سنة ١٩٣٠ افتتحت كلية قرية سوستن رسميا تلك الكلية التى هى أولى نوعها فى العالم فى احتفال رأسه سمو البرنس أوف ويلز الذى أنصف فى خطبته إذ وصف المدرسة بأنها محاولة جريئة ومجهود بدائى من ناحية مجلس مقاطعة كمبردج ليظهر كيف يتأتى للريف الانجليزى أن ينال فرصا للتربية والحياة الاجتماعية والرياضة على قدم المساواة مع ما يتمتع به سكان المدن العظيمة . وانتهز رئيس مجلس المقاطعة المناسبة ليطرى الثناء المستحق لهنرى موريس الذى يرجع إلى بعد نظره ونشاطه وغيرته أن صار المشروع مثلا لتقدم التربية الريفية فى أنحاء المملكة .

وكانت سوستن واحدة من احدى عشر كلية من كليات القرية فى المشروع الذى وضع ليغطى جميع منطقة كمبردج الريفية . فقبل افتتاحها بسبعة أشهر أقرت لجنة التربية مشروعا بانشائها . . . ولم ينفذ للان غير أربعة منها — فقد افتتحت الثانية فى بوتشام Botsham سنة ١٩٣٧ ، وتلتها ليتون Linton سنة ١٩٣٨ ثم امبنجتون Impington سنة ١٩٣٩ عندما نشبت الحرب تماما — ولكن هذه الأربعة أظهرت بجدارة — رغم سنى الحرب التى حدت من النشاط الطبيعى لهذه الكليات — ما كان للتجربة من قيمة كبيرة .

وفى الحقيقة أنها الآن أكبر من تجربة ، فقد تحقق بها الحكم الذى صدر عند افتتاح سوستن انها تعين افتتاح وجه جديد هام فى التربية الريفية الانجليزية . والمثل الأعلى والغرض من كل من هذه الكلية واحد طبعا ولذا فان الخلاف ليس الا فى بعض

تفاصيل وما يدور حولها من النشاط ، إلا أن كل كلية ليست تمتاز عن زميلاتها من الناحية الهندسية فحسب ، بل من حيث التقاليد التي جرت عليها — وفضلا عن ذلك فإن الموارد المالية لم تكن أبدا كافية لتحقيق كل ما أراد موريس تحقيقه ، ولكن كلما تقدم المشروع زاد تمويله شيئا فشيئا تمويلا مناسبا واتخذت الخطة طريقها المرسوم .

فبوشام مثلا لديها مدرسة حضانة وأخرى ابتدائية وبهذه الأخيرة حجرات استراحة كبيرة وحمام — فضلا عن حجرات للخدمات الطبية — وهناك عيادة ومعدات لمركز رعاية الأم والطفل .

وأحدثها وهي امبنجتن تعتبر أظرف هذه الكليات ، فقد شيدت تذكارا لجون شيفرز وهو مؤسس شركة صنع المربى الكائن مصنعها الرئيسي بالقرية ، وقد قام أعضاء عائلة شيفرز بتقديم المقر ومساحته اثنى عشر فدانا ، وبذلوا عطاء قدره ثمانية آلاف جنيه لتكاليف بناء جناح الكبار ، وقام بتصميم لبناء المهندسان المعماران والتر جروبس وماكسويل فراي ، فامبجتن هذه بناء تفخر به أي منطقة ريفية ، وقد عاقت الحرب إتمام أبنيته وإذا ما تمت فسوف تكون من أخر العمارات وأفخمها في انجلترا .

ويقع البناء على بعد قليل من الطريق العام ويصل اليه في متسع سماوي من الخضرة تتناثر عليه بعض الأشجار القديمة الجميلة وتكتنف الأشجار كذلك مداخل بهو الاجتماع ويشغل باقي الواجهة جناح الكبار . أما جناح الدراسة فيقع في الخلف بعيدا عن ضوضاء الطريق ويواجه الجنوب الشرقي حتى تعمه الشمس . ويظل على منظر بديع من خلاء الحقول . ويدل تصميم البناء على توقد الذكاء ، فموقع بهو الاجتماع وجناح الكبار وجناح الدراسة تفتح بحيث تؤدي وظائفها مستقلة تماما ولكنها بحكم تنسيقها ككل واحد ، وقد جعلت ممرات مباشرة من قسم لآخر بشكل جميل . .

ولا يسع المرء إلا أن يملكه التأثر عند ما يدخل جناح الكبار ، فالحجر تتجلى فيها البساطة مع العظمة ، مريحة في مجموعها ، وقد كسيت جدران حجر المحاضرات والحجر العادية بالخشب المشغول المقرنص بغير ملاء واتخذ أساسه من خشب القرو المنجد تنجيدا حديثا .

ويشمل جناح الكبار مكتبة مفتوحة للجميع وحجرة نادية ملحق بها مقصف وثلاث حجر للألعاب وحجرة للمحاضرات وحجرة للجان وأخرى للاجتماعات تتسع لثلاثة وستون شخصا ، وبها مسرح لطيف يضاء بثلاثة ألوان من الإضاءة وبه أفلام ناطقة ، وبهذه المدرسة كما هو الحال بغيرها تستعمل حجر الدراسة ليلا للكبار في الأغراض التربوية والنشاط الاجتماعي ، ويمكن إذا دعا الأمر أن يزاد على البناء أماكن جديدة بغير أن يفسد تصميمه .

والآن كيف كان وقع إنشاء الكلية في نفوس الأهالي الذين هم أهل المنطقة الريفية ؟ لقد كان وقعا حسنا في جملته ، ويجب ألا يغيب عنا أمران : أولهما أن أهل الريف الإنجليزي

من المحافظين المتطرفين ، ومن طبعهم التطير من كل فكرة جديدة ، وثانيها أن أقدم هذه الكليات إنما بدأ العمل فيها منذ أثنى عشر عاما وما يزال بعضها فى دور طفولته ، فقد عهد لأمبنجتن إلا بظروف زمن الحرب التى لا بدوأنها شديدة الأثر فى إعاقة تقدمها ، ومع ذلك فإن نحوا من ١,٢٠٠ — ١,٤٠٠ من عدد سكان المنطقة البالغين ٧,٥٠٠ فى سنة ١٩٤٢ وهم من سن الرابعة عشرة إلى ما فوق السبعين واظبوا على حضور الكلية عاملين فى النشاط الاجتماعى والتربوى ، ذلك رغما عن ظروف الظلام أثناء الغارات الجوية ورغما عن تغيب الشبان والشابات عن الوطن مع الجيش ومشقة العمل المتزايدة فى سبيل الدفاع عن المدن الملقى على عاتق الشيوخ وتقييد التنقل بالسيارات . فكان متوسط المواظبة على الفصل فى الأسبوع نحوا من ثلاثمائة وكان يستعمل البناء باستمرار نحو ٣٠٠ جندى من العسكريين المقامين بالمنطقة بناء على دعوة لأعضاء قوات صاحب الجلالة .

وفى شتاء ١٩٤٢ — ١٩٤٣ كان هناك ستة عشرة جمعية أو ناد أو فصل تربوى جارية العمل للكبار وثمانية للصغار ما بين الرابعة عشرة والعشرين سنة . وكانت المواضيع متفاوتة منها : الرقص الريفى ، وصناعة الخشب ، وصناعة المعادن ، وصناعة الملابس ، ودراسة اللغتين الألمانية والفرنسية ، وكانت هناك محاضرات عامة عن الحالة الجارية وعن الدين وعن العناية بتنشئة الأطفال ، وكانت الجمعية الزراعية وجمعية فلاحة البساتين وجمعية التمثيل والموسيقى ونادى الجراموفون وجماعة الأناشيد تسير كما كانت فى السنين السالفة سيرا قويا .

ولعله مما يسر المعنيين بتتبع حالة الكليات أن يطلعوا على ما بلغته شدة تعلق الهواة بالموسيقى نشيدا وعزفا وسموا ، فهناك اعتقاد سائد أن الإنجليز شعب لا يهتم بالموسيقى ، فكان العمل بكلية كمبردج القروية برهانا قاطعا على فساد هذا الاعتقاد ، يدل على ذلك ما أخرجته فرقة النشيد فى أمبنجتن أثناء هذا الموسم من قطع جبارة "كالماسيا" للهاندل وقطع من أوبراكارمن . ومن ضمن منشئات الصغار هناك ناد للأولاد الصبيان والبنات وناد للزراع وناد للهوايات ومعسكرات أعدادية للخدمة العسكرية Pre-service training unit وهذه الأخيرة من مبتدعات الحرب ، ولكنها لابد وأن تستمر فى صورة ما أيام السلم ، وهناك جمعية للتمثيل بين الصغار وحلقات للبحث والمناقشة فى الشؤون الجارية وفصول للرياضة البدنية وصالة للرقص ، وليس هناك للآن استعداد خاص لهؤلاء الصغار ، ولكن عند ما تسمح الظروف سيستأنف البناء بإضافة جناح للصغار فى أمبنجتن فقد رسم التصميم من قبل ودبر له مبلغ من المال ، وزيادة على هذا النشاط فقد اشتمل برنامج الفصل على سلسلة المحاضرات العامة نظمت بالتعاون مع وزارة الاستعلامات موضوعها " تاريخ الشعوب المتحالفة والبلدان الأخرى " ، كما أقيمت معارض لصور المصورين المدنيين من بينها صورا معارة من المتحف الوطنى . ومنها متاحف للطبوغرافيا ، ومتاحف الأنتاج الكتب وقد نظمت كثير من الحفلات عن طريق فرقة الأناشيد وجمعية الموسيقى ومجلس تشجيع الموسيقى والفن ، خلاف الحفلات السينمائية الأسبوعية ، والتمثيليات الثلاث التى أخرجتها جماعة التمثيل .

ووجوه النشاط بالكليات الأخرى قريبة الشبه جدا بما ذكرناه فى أمبنجتن — فكلية بوتشام بها ثمانيسة عشر ناد للأولاد الكبار والبنات ، وعرض كل أسبوعين عن الطهى فى زمن الحرب (وقد عمم ذلك فى جميع الكليات) كما أقيم فصل للرياضيات Mathematics وكانت تلقى محاضرات عامة بهذه الكلية من عام ١٩٤٢ — ١٩٤٤ كان من موضوعاتها تاريخ أوربا منذ فرساى — والحكومة وحماية الفرد — الجانب الريفى — وكلها شواهد على مستوى عال من وجوه الاهتمام والتفكير .

وكان طلبة كلية سوستن يحضرون دراسة موضوعها " كيف نفهم روسيا " أو الموسيقى "والمستمع العادى"، أما الفصول العملية فكانت تشمل الاختزال والآلة الكاتبة والاسعافات الأولية — وكان برنامج لندن يشمل حلقات بحث فى اللاسلكى وقد بدأ بصفة عملية فى السنة السابقة وقد دل على نجاح باهر .

وفى الناحية العلمية كانت هناك دراسة فى الأدب — بينما فى الناحية العمليـة دراسات فى النسيج اليدوى، ولكن الدراسة التربوية وعقد الجمعيات والتوادى ليس من الضرورى أن يكون لها دخل كبير فى تحويل عدد من الأفراد الى جماعة — فقد يحتمل أن تعمل على تفريقهم الى جماعات صغيرة متنافرة مالم يوجد هدف مشترك ومصلحة مشتركة تستطيع أن تربط هذه الأفراد فى جماعة — وهو مايلتمسه مشروع مقاطعة كمبردج فى نظام الحكم الذاتى الذى تطبقه فى جميع كلياتها .

والسلطة التنفيـذية للكلية فى يد لجنة التربيـة لمقاطعة كمبردج ، ومجلس الادارة ، ويتألف المجلس من مندوبين تختارهم لجنة التربية فى كل قرية فى المنطقة — ومنـدوب واحد عن كل مجلس مقاطعة ومن رئيس مجلس الطلبة — ومجلس الطلبة هذا هيئة ذات أهمية عظمى يختارها اتحاد الطلبة وعضويتها مفتوحة لكل فرد ينتفع بانتظام من الكلية وهو يمثل كل نوع من النشاط بالكلية ويمثل جميع فصول التعليم والجمعيات والنوادى والمكتبة والمقصف ومساعدى الغرف المعتادة Common room's helpers كما أن هناك مندوبين عن القرى الخارجية .

والمجلس له سلطته التامة فى الحكم الذاتى فهو يشرف على كل حياة الكلية ويشير بطرق إدارتها العامة Its general govermanse وبترتيب البرامج المسائية ويؤلف اللجان الفرعية لتعالج بتخصص نواحى نشاط الحيـاة المختلفة بالكلية ، والمكتبة والمقصف ونادى الفتيان والوظائف الاجتماعية ونحوها وله التصرف فى مبالغ متنوعة ، وهذه النقطة تحتاج إلى بيان، فالكليات ولو أنها استندت الى حد كبير على الأموال العامة — إذ أن أغلب نفقاتها من الأموال العامة — لم تكن بحال

معاهد للصدقة ، فلا يتمتع الأعضاء بكل الخدمات بالمجان وإنما هم يتكرون نواح من النشاط والخدمات يتحملون نفقاتها ، ولا يتحملونها نقدا فحسب بل يتطوعون بالمساعدة فيها ، وتصير أعمال النوادى جميعا على أيدى المتطوعين ، وقد يكون عمل المتطوع كثيرا جدا فى بعض الأحوال . ففى مينجن مثلا سبعون امرأة مساعدة يتناوبن العمل بمعدل سبعة كل ليلة لإعداد المقصف والخدمة فى وجبات الطعام والمرطبات ، ثم إن بعض الغرف تعطى بالإيجار ويقوم مجلس الطلبة نفسه بدفع إيجار عن استعماله للمقصف الذى يديره على أنه عمل تجارى ، ويدفع نادى الرياضة إيجارا محترما عن الغرف التى يستعملها ، ولكن لا يدفع شيئا عن الغرف التى تستعمل فى النشاط المدرسى ، إنما يدفع الطلبة الرسوم المقررة عن استمرار المحاضرات وعن دراسات أخرى تنظمها هيئات لتعليم الكبار ولا ينفق من المبالغ التى يجمعها مجلس الطلبة إلا بارشاد المجلس الذى ينفقها غالبا فى شراء معدات وفى تمويل خدمة السيارات التى تنقل الطلبة من القرى المجاورة الى الكلية بأجور زهيدة .

وليس من الضرورى الإشارة إلى أن هـذا الضرب من الإدارة يهيء تدريبا قيما جدا وعمليا فى إعداد المواطن ، وهو فى الواقع عمل ديمقراطى بتوسعه يسمح للجتمع كله أن يأخذ بالأساليب الديمقراطية . وهذا هو فى الواقع حجر الزاوية فى أهداف الكلية القروية .

وماذا عن المستقبل ؟ لا يسع الانسان أن يتصور ما يسند الى الكلية القروية من رسالة منشودة ، وها قد تحقق منها الكثير فى هذه الفترة القصيرة . فالكليات الأربع الموجودة ولدت فى أقسى الظروف وكان قد قدر عليها أن تقابل بأصعب العراقيل الناشئة عن ظروف الحرب ولكن مما يسترعى الانتباه أن أحد عمدائها يكتب الآتى فى مستهل السنة الرابعة من الحرب : "إن الشدائد كانت بردا على كونها عوامل تنبيه كما كانت هى عقبات ، وفى الحقيقة أننا تعلمنا منها كما تعلم أهل المدن والقرى فى أنحاء المملكة الحاجة الى مركز جماعى كهذا ولذا فما يزال مجال عملنا يتزايد " .

وغنى عن البيان أن الحاجة ماسة الى مراكز جماعية Communitry centres فاذا كانت البقاع الأخرى فى انجلترا ما تزال خالية من كليات تضارع كليات مقاطعة كمبردج فانه يغلب فى كل مقاطعة وجود رجال ونساء قد تألفوا للأخذ بنصيب فى نواحى النشاط المماثلة يديرون نواد من نوع ماعندنا وجمعيات غالبا ما تصل إلى درجة راقية من الادارة ، ولكنهم على العموم لا يملكون منزلا خاصا بهم فيلجأون الى استئجار أبنية شيدت لأغراض أخرى ، فكانت مقاطعة كمبردج مرشدا للطريق من وجهتين ، انها حققت تعريفا للوحدة الحديثة أى المنطقة الريفية ، وانها فتحت التربية الريفية للجتمع على وضع جميل محترم ، وليس هذا بالعمل القليل .

ترجمة : على فؤاد أحمد
الأخصائى الاجتماعى بإدارة الفلاح